



**HAL**  
open science

**[Traduction] جورج تات : الازدهار الاقتصادي في شمال سوريا في العصر البيزنطي  
بين القرنين الرابع والسابع**

Akram Kachee, Mohamed Al Dbiyat, Georges Tate

► **To cite this version:**

Akram Kachee, Mohamed Al Dbiyat, Georges Tate. [Traduction] جورج تات : الازدهار الاقتصادي في شمال سوريا في العصر البيزنطي بين القرنين الرابع والسابع. <halshs-05290557> 2025.

**HAL Id: halshs-05290557**

**<https://shs.hal.science/halshs-05290557v1>**

Preprint submitted on 30 Sep 2025

HAL is a multi-disciplinary open access archive for the deposit and dissemination of scientific research documents, whether they are published or not. The documents may come from teaching and research institutions in France or abroad, or from public or private research centers.

L'archive ouverte pluridisciplinaire HAL, est destinée au dépôt et à la diffusion de documents scientifiques de niveau recherche, publiés ou non, émanant des établissements d'enseignement et de recherche français ou étrangers, des laboratoires publics ou privés.



Distributed under a Creative Commons CC BY-NC 4.0 - Attribution - Non-commercial use - International License

## الازدهار الاقتصادي في شمال سوريا في العصر البيزنطي\*

### بين القرنين الرابع والسابع

جورج تات Georges TATE

#### مقدمة

في العصر البيزنطي (القرن الرابع إلى السابع)، كانت منطقة شمال سوريا واحدة من أكثر المناطق تحضرًا في الإمبراطورية. فهي تضم مدينة أنطاكية الكبيرة، وعدة مدن هامة على الساحل: سلوقية بيبيريا Séleucie de Pierie واللادقية Laodicée وما هو أكثر ندرة مدن كبيرة ومتوسطة الحجم في الداخل: أفاميا، التي تتجاوز بالتأكيد مائة ألف نسمة، قنسرين Chalcis du Bélus، التي يحيط سورها المبني بعهد الإمبراطور جوستانيان بمدينة منخفضة واسعة عند أسفل الأكروبول، وحلب Beroe والني هوري Cyrrhus. وأخيرًا عدة قرى على أطراف البادية، التي بلغت في القرن السادس أبعادًا عمرانية تقريبًا، وعبرت ربما عن تنظيم واضح: منبج Anasartha والأندرين Andrôna وتاروتيس Tarutia. وكلما أمكن ملاحظتها، نجد أن أقدم هذه المدن تحتفظ بالسمات الرئيسية للتخطيط العمراني الرومان، مثلما كان معتمدًا بشكل عام في بداية القرن الأول. ولكن في العصر البيزنطي بدأت تظهر بعض السمات الجديدة: فالشارع الرئيس الذي يعبر المدينة من الشمال إلى الجنوب يتعرض، على كلا الجانبين، إلى التضيق بسبب تجاوزات السكان المجاورين، مما أدى إلى تحول بطيء أدى في النهاية إلى المدينة الإسلامية؛ فظهرت مبان عامة جديدة، مثل الكنائس، بينما اختفت أخرى، كالمعابد.

لم تكن المدن عديدة فحسب، بل عديدة ومكتظة بالسكان. إذا ما حكمنا على الحجم فقط، حتى الأرياف كانت أيضًا كثيفة السكان. بالإضافة إلى الشهادات النصية، وفي السياق نفسه، يقدم علم الآثار أدلة عديدة ودامغة على ذلك. لا شك أن آثار المستوطنات اختفت كليًا تقريبًا في السهول: لم يبق منها سوى بعض المواد التي أعيد استخدامها في المباني التي حلت محلها؛ في المناطق الهامشية الفقيرة بالأراضي الصالحة للزراعة كما في كتلة الجبال الكلسية أو ذات التهطل الضعيف، كالمنطقة البازلتية جنوب شرق حلب حيث تشكل القرى، الكثيرة والمتجاورة، شبكات كثيفة.

ازدهار المدن، والاحتفاظ السكاني في الأرياف. سيكون هدفنا أن نعرض خلاصة المعارف الراهنة التي تتيح تفسير هذين الأمرين في حد ذاتهما وفي علاقاتهما المتبادلة<sup>1</sup>.

\* للعودة للمصدر: Tate Georges. Prospérité économique de la Syrie du Nord à l'époque byzantine (IVe-VIIe s.), in *Revue du monde musulman et de la Méditerranée*, n° 62, 1991. Alep et la Syrie du Nord. pp. 41-47 ; doi : <https://doi.org/10.3406/remmm.1991.1520>

[https://www.persee.fr/doc/remmm\\_0997-1327\\_1991\\_num\\_62\\_1\\_1520](https://www.persee.fr/doc/remmm_0997-1327_1991_num_62_1_1520)

<sup>1</sup> فيما يخص سوريا في العصر البيزنطي، أنظر محاولة المقالة التلخيصية لجورج تات المنشورة في: J.-M. Dentzer et W. Orthmann, Saarbrücken, 1989 : *Archéologie et histoire de la Syrie*, tome II

هذا النص المكتوب في عام 1980 لا يشير إلى أبحاثي الخاصة في الكتلة الجبلية الكلسية ولا بالتأكيد للتقدم الكبير الذي تم إنجازه في معرفة الفخار وتوزعه.

## 1- أسس عدد المدن السورية وازدهارها

يعود الفضل في عدد وثراء مدن شمال سوريا إلى حد كبير إلى دورها في التجارة الدولية والإقليمية، ولا سيما في حالة انطاكية وسلوقية ببيريا.

في كل العصور، ولا سيما في العصر الهلنستي، وبفضل تأسيس سلوقوس الأول الأقطاب السورية الأربعة<sup>2</sup> (Tétrapole syrienne). كانت منطقة شمال سوريا نقطة التقاء طبيعية لأحد الطرق الثلاثة الكبرى والثانية من حيث الأهمية، التي تربط المحيط الهندي بالبحر الأبيض المتوسط عبر الخليج الفارسي. وهي تتمتع بتسهيلات للتنقل تؤمنها هضابها وسهولها، وكذلك إمكانية المرور مباشرة من حلب إلى البحر من خلال المعابر وليس الممرات الجبلية عبر السلاسل الموازية لساحل البحر الأبيض المتوسط، وأخيرًا المسافة كانت الأقصر من أي مكان آخر على هذا المستوى الذي يفصل بين الساحل والفرات. هذا الطريق هو بلا شك أقل أهمية في العصر البيزنطي من الطريق المؤدي إلى السويس Klyasma : ومن ثم إلى الاسكندرية في مصر. والذي يبدو أنه تفوق، بالمقابل، على الطريق الشمالي الذي يعبر أرمينيا وصولاً إلى وسط الأناضول. أضف إلى ذلك، ازدادت أهميته بالتأكيد منذ أن جعل سقوط تدمر عبور الصحراء بالقافلة غير آمن وغير ممكن عملياً، في حين أنه في القرن الخامس والسادس كانت القبائل العربية الرحل تتحرك وتتحد وتبني علاقات في الوقت نفسه مع الامبراطورية ومع الفرس وتندلع حروب متقطعة فيما بينها بلا توقف<sup>3</sup>. وأخيراً، حاولت الحكومة الامبراطورية في القرن السادس تحسين مراقبة هذه التجارة، وذلك بتخفيض عدد نقاط المرور: نصيبين Nisibe في بلاد ما بين النهرين، إيوتابه Iotabe في خليج العقبة وطبعاً السويس.

من المحتمل ان انطاكية والمدن السورية الأخرى، ولا سيما صور، استفادت من ذلك باستعادة جزء من حركة التجارة المؤدية إلى إيوتابه. وكانت هذه التجارة تتعلق بمنتجات خفيفة الوزن ولكنها باهظة الثمن: الفلفل والبخور والعطور وغيرها من التوابل، وبالأخص الحرير الصيني، الذي كان يبقى جزء منه فقط في سوريا<sup>4</sup>.

إلى جانب التجارة الدولية فإن التجارة بين الأقاليم كانت تحظى أيضاً بمكانة مهمة. فقد كانت منطقة شمال سوريا مصدرة ومستوردة على حد سواء.

كانت سوريا مستوردة للرخام كما أشار بوضوح ج.ب. سوديني J.-P. Sodini. إذ كان يصل من تيساليا Thessalie أو من مرمرة Proconnèse بشكل خام من المقلع أو مشذب للاستخدام الخاص أو الديني : طاولات طقسية وأعمدة مذبح وتليسات جدارية وبلاط وتيجان بالطبع. على الرغم من أن هذه المنتجات أثقل وزناً وأقل تكلفة، إلا أنها تظل سلعة فاخرة، ولكن تأتي بالمرتبة الثانية مقارنة بالمواد السابقة. تعتبر واردات السيراميك ذات أهمية أكبر، لأنها تتعلق بالاستهلاك اليومي. هايز<sup>5</sup> Hayes يعرفها جيداً، فأواني المائدة المصنعة في شمال أفريقيا معروفة تحت اسم African Red Slip (ARS) متوفرة بكثرة في انطاكية وابن هاني قرب اللاذقية منذ نهاية القرن الثالث حتى منتصف القرن السابع. وينطبق الأمر نفسه على الخزف المصنوع في فوكايا Phocée (Phocean Warl) والفخار القبرصي المطبوع بالزخارف.

من ناحية الصادرات، تظهر الأبحاث الحديثة أن الجرار الفخارية (الأمفورات) من النوع الروماني المتأخر " Late Roman Amphora 1 (LRA1) كانت مصنوعة في منطقة انطاكية وكيليكيا ورووس وقبرص. وتوجد هذه الجرار تقريباً في كل مناطق الامبراطورية الرومانية البيزنطية وصولاً إلى البحر الأسود، وحتى في إنكلترا. إذا تم التأكد من أن سهول شمال سوريا وكيليكيا وقبرص كانت تحتكر إنتاج هذا النوع من الجرار، سيكون لدينا مؤشر من الدرجة الأولى على مدى انتشار صادرات المنطقة. لأن

<sup>2</sup> وهي انطاكية وسلوقية ببيريا (ميناء تابع لأنطاكية) واللاذقية (لاوديكية أو لاريسا) وأفاميا. (المعرب)

<sup>3</sup> Isfan Shahid

<sup>4</sup> H. M. Jones, 1964 : 824 et sq.

<sup>5</sup> J.-P. Sodini 1990 أنظر أيضاً J.-W. Hayes, 1972

<sup>6</sup> J. Riley, 1979 et 1981 ; M. Picon et J.-J. Empereur, 1986 et sous presse ; J.-P. Sodini

يقدم ب. سوديني ملخص لمقالاته في مقالته المنشورة في لوفن Leuven في عام 1990.

هذه الجرار كانت في المقام الأول حاويات: كانت تستعمل لنقل زيت الزيتون وفي بعض الأحيان النبيذ. كان تصدير النبيذ معروفًا من خلال النصوص: ونعرف أن إيل جبل Elagabal، في القرن الثالث، كان يجلب النبيذ إلى روما من مدينة البارة (في كتلة الجبال الكلسية). وبالمقابل، كانت مسألة تجارة الزيت موضع نقاش بالرغم من ملاحظة ليبانيوس التي تؤكد حقيقتها. وقد اعتبر ج. تشالانكو (1958-1953) G. Tchalenko أن تصديره إلى الغرب هو السبب الوحيد لازدهار كتلة الجبال الكلسية. وافق م. رودنسون M. Rodinson على هذه الفرضية معتبرًا أن وجهة هذا الزيت كانت على الأرجح القسطنطينية. إن توزيع جرار الزيت في جميع أنحاء الإمبراطورية لا يؤكد أن الزيت الموزع كان من كتلة الجبال الكلسية، ولكنه يظهر بوضوح أن زيت شمال سوريا، أيًا كان مصدره، كان يصدر إلى كل مكان.

إلى جانب الصادرات الزراعية، تُضاف صادرات المنتجات الصناعية. ومن بينها تجارة الحرير التي أصبحت معروفة بشكل أفضل بعد الدراسة الحديثة التي قام بها ن. أوكونوميديس (1986) N. Oikonomidès. من المعروف أن جزءًا من الحرير المستورد من الشرق الأقصى، من قبل أنطاكية، كان مصبوغًا بالأرجوان محليًا أو في مدن أخرى من الساحل السوري الفلسطيني ولا سيما في صور. ابتداءً من عهد جستينيان، استمر هذا النشاط التجاري، لكن ظهرت أيضًا صناعة محلية للحرير. وكان الإشراف على التجارة والإنتاج يُمنح حصريًا، عن طريق المزايمة، لرجال أعمال أثرياء يُعرفون باسم "التجار" <sup>7</sup> Commerciaires.

"كانوا يتواصلون مع الفلاحين الذين يملكون أشجار التوت واليد العاملة، وكانوا يقرضونهم الأموال ويشتررون محاصيلهم كاملة في نهاية الموسم. وهكذا كانت المنتجات مخزنة في المستودعات، مع التأكد من جودتها، ومضمونة وموضوعة في السوق. هذه العمليات كانت بلا شك مفيدة "للتجار" وكذلك لموارد الدولة المالية". (N. Oikonomidès, 1989 : 191).

نضيف إلى ذلك أنها كانت كذلك بالنسبة للمنطقة التي كان يقيم فيها هؤلاء "التجار"، ولا سيما مدينتي صور وأنطاكية.

من بين الصادرات الأخرى من شمال سوريا، لا نعرف سوى الأسلحة في القرن الرابع، بحسب ليبانيوس. وكان دقلديانوس Dioclétien، قد أسس مصانع كبيرة (ب. بُتي، 1955 : 304, note 6) P. Petit، كان مردودها كما يبدو أعلى من مصانع القسطنطينية. ووفقًا ليبانيوس أيضًا، كان سكرتيره تالاسيوس Thalassios، يصنع السيوف والسكاكين بفضل عبيد مختصين.

كانت الصادرات من شمال سوريا، وخصوصًا من انطاكية، ذات أهمية من حيث الكمية والسعر، غير أنه من البديهي ألا تسمح المصادر بجرد كامل لها، ولا حتى معرفة إن كانت ثابتة ومستمرة خلال القرون الثلاثة المطلوبة<sup>8</sup>.

والسؤال الآخر هو ما إذا كانت الصادرات تفوق الواردات من حيث الحجم. ورغم عدم إمكانية الإجابة على هذا السؤال بشكل قاطع، فإن اكتشافات العملات التي تمت في شمال سوريا، كما درسها مؤخرًا س. موريسون<sup>9</sup>، تسمح بتبسيط الضوء على نقطتين. الأولى هي أن ثروة شمال سوريا تثبتتها أولاً الأهمية النسبية للآثار المكتشفة (أكثر من 10.000 قطعة ذهبية مقابل ألف في شمال أفريقيا، وهي منطقة أخرى غنية)، وأيضًا مقدار الجزية التي دفعتها المدن السورية للفرس في عام 540. والثانية هي أنه على الرغم من وجود ورشة لصك العملة البرونزية في انطاكية، تشير الاكتشافات إلى أن العملة المسكوكة من هذا المعدن في القسطنطينية تتفوق عليها. هذا التفوق، إذا ما أكدته الاكتشافات المستقبلية، يدل على أن الميزان النقدي لسوريا، مع بقية الامبراطورية وخاصة مع القسطنطينية، كان إيجابيًا. من هنا يمكن الاستخلاص أن الأمر كان كذلك بالنسبة للتبادل التجاري. لا يوجد سوى خطوة واحدة من المغربي اتخاذها. بالمقابل، لا يوجد ما يسمح بمعرفة ما كان عليه الحال مع بلاد فارس. الانطباع السائد، بشكل عام، هو أن أهمية مبادلاتها التجارية مع الخارج تفسر، على الأقل جزئيًا، عدد المدن السورية وازدهارها.

<sup>7</sup> مصطلح commerciaires في النصوص البيزنطية لا يعني ببساطة "تجار"، بل يشير إلى فئة خاصة من المتعهدين التجاريين الذين كانوا يحصلون، بالمزاد العلني، على حق احتكار التجارة أو الإنتاج (مثل تجارة الحرير في زمن جستينيان). هم أقرب إلى ما نسميه اليوم: متعهدون تجاريون، أو محتكرو التجارة المرخص لهم، ويمكن تشبيههم فعلاً بعضوية مجلس إدارة غرفة تجارة أو هيئة رسمية تشرف على النشاط الاقتصادي باسم الدولة. (ChatGPT)

<sup>8</sup> فيما يخص منتصف القرن الرابع أنظر: Exposition Totius Mundi et gentium" édité par J. Rouge, Paris, 1966. C. Morrisson, 1989

## 2- العلاقات بين المدن والأرياف

لقد رأينا أن جزءًا كبيرًا من الصادرات تعتمد على المنتجات الزراعية، الزيت والنبيد، وأن الريف كان مكتظًا بالسكان، حتى في المناطق ذات الظروف الطبيعية الأقل جودةً. ولم يعد بالإمكان الاعتقاد، كما كان الحال لفترة طويلة، أن المدن كانت متفلة على الأرياف وأن ثراء الأولى تأسس على فقر الثانية بسبب وطأة الرسوم الإلزامية، سواء كانت الضرائب أو الريع.

وفي دراسة حديثة<sup>10</sup>، نكتفي هنا باستعراض استنتاجاتها، أظهرنا أن العلاقات بين المدن والريف كانت تتم وفقاً لتيارين مختلفين. أحدهما، المحدد بالقانون العام أو الخاص، يتكون في الواقع من الضرائب التي تفرضها المدن على الأرياف، لصالح السلطة الامبراطورية (الضريبة) أو لمصلحة سكان المدن الأكثر ثراء (الريع). فالمنازل المنقبة في انطاكية، وخاصة في أفاميا تحت إشراف ج.-ش. بالتي J.-Ch. Balty، تظهر رخاء هؤلاء المدينين (ج. لاسو J. Lassus، 1984؛ ج.-ش. بالتي 1984). هذه المنازل ذات أحجام كبيرة جدًا. فالباحة المعمدة في أحد هذه المنازل، منزل "التيجان ذات الرفوف الحجرية الصغيرة"، تصل إلى حجم ساحة عامة في مدينة أفريقية. ولا يبدو أن لدينا أي شك بصواب فرضية ج.-ش. بالتي: فهذه المنازل كانت تعود إلى ملك كبار جدًا، غير أننا نرجح أن أملاكهم كانت في وادي العاصي أو على الهضاب القريبة منه وليس في جبل الزاوية حيث كانت تسود في قره بنية اجتماعية مختلفة تمامًا.

كانت الأراضي التابعة لهذه المنازل تنتج بلا شك القمح، لكن لا بد من الإشارة إلى أنه منتج يصعب نقله لمسافات بعيدة، إلا بواسطة النهر، وتتم هذه الحالة عبر نهر العاصي أو عبر البحر، كحالة انطاكية وسلوقية واللاذقية. نعلم في الواقع، من خلال مرسوم دقلديانوس حول الحد الأقصى، أن سعر القمح المنقول برًا لمسافة تزيد عن 100 كم، كان يتضاعف. في عام 360، أشار جوليان Julien أن الجوع يسود انطاكية فيما كانت الوفرة تسود في هيرابوليس Hierapolis: على الرغم من ارتفاع الأسعار لم ير أي تاجر أنطاكي أن هناك جدوى من جلبه (ج. تات G. Tate، 1990). لذلك من المرجح أن المزارع التابعة للأغنياء في المدن كانت تنتج أيضًا الزيت والنبيد، وبما أن هذه المزارع كانت تقع في الغالب في السهول والهضاب، فلا شك أن الزيت كان عالي الجودة، وهو نفسه الذي كان يصدر في الجرار المصنوعة في الساحل.

وفقًا للبيانوس، لم تكن حقول الملاكين الكبار أرض واحدة بشكل عام، بل كانت موزعة على عدة مناطق، (P. Petit، 1955). إذا تم تأكيد ذلك بالنسبة لانطاكية، وإن كانت مصداقيتها إلى القرون القادمة وإلى مدن سوريا الأخرى، لتوفر لدينا دليل إضافي بأن الريع العقاري الذي يطلبه المدينين من الريف كان، على الأقل جزئيًا، على شكل منتجات يسهل تسويقها أكثر من القمح أو حتى بشكل نقدي. وبعبارة أخرى، لم تكن الملكية الكبيرة، في شمال سوريا، مرادفةً للاستهلاك الذاتي. وكان الريع العقاري يصل أو يمر، على الأقل جزء منه، عبر السوق.

الدائرة الأخرى تمر بمجملها عبر السوق. وهي تربط بشكل مباشر بين المزارعين والتجار وسكان المدن، وهي تشمل التبادلات الاقتصادية البحتة، وتؤكد ذلك النصوص وعلم الآثار. وكانت هذه التبادلات تمارس في المدن وكذلك في البلدات، وحتى في المعارض الريفية. وقد اعتقد ج. تشالونكو أن اقتصاد قرى كتلة الجبال الكلسية كان مبنياً حصريًا على إنتاج وتصنيع الزيت وتصديره، وكان يعتقد أن القرى كانت منظمة في شبكة هرمية، وكان بعضها متخصصًا في الإنتاج والبعض الآخر في جمع الزيت. ووفقًا له، هذه القرى تقع بشكل خاص على السفح الشمالي لجبل باريشا؛ دار قيتا وخاصة بابسقا وباعودة، والتي يضم كلا منها حيًا تجاريًا. ففي باعودا كان الحي التجاري يشمل القرية بأكملها. هذه الأحياء تتميز بصقوف من الشوارع الموازية، التي تصطف المحلات التجارية على جانبيها، وكانت هذه القرى على مقربة من الطريق الروماني الذي يربط انطاكية بكل من بيروا (حلب) وكاليسيس (قنسرين).

<sup>10</sup> G. Tate، 1990 ؛ أنظر أيضًا G. Tate 1989 وما هو قيد النشر.

هذا المفهوم لا يصمد أمام التحليل، فالشوارع المذكورة مقسمة في الواقع إلى منازل بواسطة جدران عمودية، وهذه القرى ليست أقل إنتاجًا أو جمعًا من غيرها (ج. تات، قيد الطبع).

ولكن، ودون الوصول إلى مثل هذه الحالات المتطرفة، يبقى من المؤكد أن بيع المنتجات الزراعية هو السبب الرئيس في ازدهار قرى كتلة الجبال الكلسية. فالأبحاث التي أجريت منذ عام 1976 تبين أن هذه القرى المنتشرة على طول 100 كم، وبعرض 20-25 كم بين الحدود التركية، في الشمال، ومدينة أفاميا في الجنوب كانت مأهولة بمجتمع من الفلاحين الأحرار والمتساوين نسبيًا. كانوا يمارسون زراعة متعددة المحاصيل، تُلبي احتياجات الاستهلاك الذاتي وضرورات البيع للحصول على النقود اللازمة لدفع الضرائب. وهم يجمعون بين الزراعة وتربية الحيوانات : القمح والزيتون، الكروم وأشجار الفاكهة والخضراوات والأغنام والابقار. وإلى الزراعة، أضاف هؤلاء الفلاحين أنشطة صناعية، ربما الغزل والنسيج وعلى الأقل تقطيع الحجر والبناء. بشكل عام، أثرى هؤلاء الفلاحين ومن الواضح أنه بعد دفع الضرائب، كان لا يزال لديهم فائض. ويشهد على ذلك الجودة والتكلفة، المبالغ فيها، لمنازلهم التي بُنيت اعتبارًا من القرن الخامس بالحجارة المشدبة على شكل طبقات منتظمة بارتفاع حوالي 50 سم، مثل المعابد أو الكنائس. ازداد ثراء هؤلاء القرويين بين القرن الرابع ومنتصف القرن السادس. أصبحت المنازل أكثر فخامة دون أن تكون دائمًا أكبر حجمًا، في حين تقلصت مساحة الممتلكات بسبب النمو السكاني. بل أظهرت الحفريات في دير القديس سمعان وداحس<sup>11</sup> أن المنتجات المستوردة من ما وراء البحار، والأواني المنزلية من شمال إفريقيا (African red Slip, ARS) والعملات البرونزية من القسطنطينية وأنطاكية، كانت تصل إلى هذه القرى النائية.

ليس من السهولة بمكان معرفة الجهات الفاعلة في هذه التبادلات. وفقًا للصورة التي رسمها ليبانيوس في كتابه *Antiokikos*، (Festugière, 1959) كان الفلاحون أنفسهم يأتون لبيع منتجاتهم في المدينة مقابل النقود، كان جزء منها يُنفق على شراء منتجات مصنعة. وفي السياق نفسه، يشير أحد النقوش إلى أن اثنين من سكان كفر كرمين (الجانب الشرقي من جبل سرير) قُتلا في نزل أثناء ذهابهما إلى اللاذقية.

في حين تقوم المدن بجمع المنتجات من الريف - ولكن هل هناك زمان أو مكان كان فيه الأمر خلاف ذلك؟ - فإنها في الوقت نفسه تُعد منشطة للاقتصاد. إذ تنشر الازدهار من حولها من خلال الدور الذي تؤديه في المبادلات مع المدن الأخرى والمناطق الأخرى وكذلك مع الأرياف المحيطة بها. صحيح أن هذا الازدهار لا يستفيد منه الجميع، ولا سيما فلاحو الأراضي العائدة لسكان المدن، أو على الأرجح أقل من الفلاحين المعروفين الذين يعيشون في القرى الحرة. بقدر ما هو الحال في مناطق أخرى من الإمبراطورية، بل وأكثر من ذلك، لا يمكن اعتبار المدن طفيلية.

على الرغم من ازدهارها، فإن اقتصاد شمال سوريا يبقى هشًا. إن تقلبات الإنتاج الناجمة عن تقلبات الطقس وصعوبة نقل المواد الثقيلة مثل القمح تجعل فترات الوفرة تتخللها أزمات معيشية تؤدي أحيانًا إلى انتشار الأوبئة. هذه الأزمات سببها العجز في الإنتاج (ج. تات 1990، 1989 قيد النشر). وقد عرفت أنطاكية ثلاث أزمات في القرن الرابع (362-363؛ 382-385) وواحدة في القرن السادس في إبيديسا (499-502)، وتبدو هذه الأزمات بارتفاع الأسعار، ولكن آثارها تكون محدودة بسبب تنوع النظام الغذائي. فعندما يندر القمح والشعير، يلجأ الناس إلى البازلاء والبقول والعدس والزبيب واللحم، بل حتى الأسماك. بالرغم من خطورتها، تظهر هذه الأزمات أهمية السوق، ولا سيما سوق المدينة. في أوقات القحط، في القرنين الرابع والسادس في أنطاكية، كما في إبيديسا، هرع الفلاحون إلى المدن حيث الإمدادات الغذائية أكثر وفرة مما هي عليه في القرى المعزولة وحيث يمكنهم الاستفادة من التوزيعات المجانية. عادة ما تحاول السلطة الإمبراطورية التدخل للحد من آثار هذه الأزمات، حرصًا على النظام الاجتماعي، ولكنها لا تنجح دائمًا بسبب المقاومة لأن جهودها تواجه بمقاومة الملاك الكبار أصحاب المخزونات الذين يراهنون على ارتفاع الأسعار. وكما هو الحال دومًا، ترد السلطة بفرض ضرائب جديدة تؤدي إلى تفاقم النقص وإلى تطوير سوق سوداء ذات أسعار باهظة. وأحيانًا تزود

<sup>11</sup> J.-P. Sodini, G. Tate, B. Bavant et Alii Déhès I-III Syria 1980

السلطات السوق بجلب، عبر قيود إدارية قسرية، منتجات من مناطق نائية. فتنخفض الأسعار على الفور، ولكن المحتكرين يقومون بعمليات شراء ضخمة تؤدي من جديد إلى ارتفاع حاد في الأسعار. وفي جميع الأحوال، تبرز هيمنة السوق، لكن في حالة الأزمات، يكون ذلك لصالح "المكتنزين" حصريًا، أي أصحاب رؤوس الأموال، وهم في الواقع كبار الملاك.

هذا الازدهار الموزع توزيعًا غير متكافئ، بين المناطق الحضرية والريفية، قد استمر في الازدياد في الفترة 540-550. وفي المدن، ظلت الأنشطة العمرانية هامة. وفي المناطق الهامشية حيث يمكننا معرفة الأرياف من خلال الآثار، استمر النمو أيضًا: قرى كتلة الجبال الكلسية تكبر وتثرى في حين أنه في الجبل البازلتية في الشرق على حدود البادية، يتمدد انتشار القرى إلى مناطق الحدود الدنيا لهطول الأمطار ويتحول بعضها إلى مدن. على العكس من ذلك، اعتبارًا من عام 540، أصبحت أزمات المعيشة منتظمة. وكانت هذه الأزمات تتعاقب على مدى عشر سنوات تقريبًا، وغالبًا ما كانت تؤدي إلى وباء الطاعون. تؤدي هذه الأزمات في الريف إلى تقلبات في انخفاض وانتعاش النمو السكاني، ولكنها تفضي في النهاية إلى إفقار المدن وكذلك الأرياف. ولتفسير هذا الانعكاس (ج). تات (G. Tate 1990، 1989 قيد النشر)، يمكننا أن نفترض أن هذه الأزمة من النوع المالتوسي، حيث يصبح النمو السكاني أقوى من النمو الاقتصادي.

شهد شمال سوريا، في العصر البيزنطي، واحدة من أكثر فترات ازدهاره في التاريخ. هذا الازدهار، الذي ترسخ بفضل فترة سلام شبه مستمرة على مدى فترة طويلة جدًا، ثلاثة قرون في العصر الروماني وأكثر من قرنين في العصر البيزنطي، استمر في النمو حتى منتصف القرن السادس. مدفوعة بنمو سكاني أكدته الدراسات الأثرية بالعديد من الأدلة، لم تظهر هذه الظاهرة في المدن فحسب، خلافًا للرأي الذي ساد طويلًا في الكتابات التاريخية، التي تقول إن ثروة المدينة القديمة كانت قائمة على الاستغلال القاسي للفلاحين، بل تجلت أيضًا في الأرياف حيث، في مناطق بأكملها، قدمت قرى الفلاحين الأحرار، الذين يمتلكون بضع هكتارات من الأرض، مظهرًا معماريًا بالغ العظمة يتحدى حدود المعقول. مما لا شك فيه أن هذه الصورة تستحق أن تُستدرك ببعض التوضيح: لم يكن كل الفلاحين أغنياء، وكانوا جميعًا معرضين لمخاطر سوء المحصول؛ وكذلك لم يكن جميع أهل المدن أثرياء ولكن بالمجمل، يقدم علم الآثار أدلة لا يمكن الطعن فيها على أن ازدهار سورية كان حقيقيًا، وأنه شمل الأرياف مثلما شمل المدن.

ترجمة: أكرم قشي ومحمد الديبات

## Bibliographie المراجع

- BALTY (J.-Ch.), 1984, "Notes sur l'habitat romain, byzantin et arabe d'Apamée : rapport de synthèse", *Colloque Apamée de Syrie 1973-1979*, Bruxelles.
- FESTUGIERE (A.-J.), 1959, *Antioche païenne et chrétienne*, Paris.
- HAYES (J.-W.), 1972, *Late Roman Pottery*, Londres.
- JONES (H.-M.), 1964, *The Later Roman Empire (284-602)*, Oxford.
- LASSUS (J.), 1984, "Sur les maisons d'Antioche", *Colloque Apamée de Syrie 1973-1979*, Bruxelles.
- LASSUS (J.), "La ville d'Antioche à l'époque romaine d'après l'archéologie", dans *Aufstieg und Niedergang der römischen Welt*, H.8.
- MORRISON (C.), 1989, "La monnaie en Syrie byzantine", in J.-M. Dentzer et W. Orthmann éd., *Archéologie et histoire de la Syrie*, T. II, Saarbrücken.
- OIKONOMIDES (N.), 1986, "Silk Trade and Production in Byzantium from the sixth to the ninth Century :

the Seals of Kommerkiarioi", in *Dumbarton Oaks Papers*, 40, p. 33-53 ; étude reprise sous le titre "Commerce et production de la soie à Byzance", dans *Hommes et richesses dans l'Empire byzantin (V<sup>e</sup>-VII<sup>e</sup> siècles)*, Paris, 1989.

PETIT (P.), 1955, *Libanius et la vie municipale à Antioche au IV<sup>e</sup> siècle après J.-C.*, Paris.

PICON (M.) et EMPEREUR (J.-Y.), 1986, "A propos d'un nouvel atelier de Late Roman C", *Figlina 7*

PICON (M.) et EMPEREUR (J.-Y.), 1989, "Les régions de production d'amphores impériales en Méditerranée orientale", in *Anfore romane e storia economica : un decennio di ricerca*, Rome.

RILEY (J.), 1979, "The Coarse Pottery from Berenice", *Excavations at Sidi Krebish (Berenice)*, Vol H, Tripoli.

RILEY (J.), 1981, "The pottery from the cisterns 1977-1, 1977-2 and 1977-3; General discussion of imported eastern Mediterranean amphoras and later Roman fine wares", *Carthage VI, Excavations at Carthage 1977, conducted by the University of Michigan*, Ann Arbor.

SODINI (J.-P.), 1989, "Le commerce des marbres à l'époque protobyzantine" in *Hommes et richesses dans l'Empire byzantin (IV<sup>e</sup>-VI<sup>e</sup> siècles)*, Paris.

SODINI (J.-P.), 1990, "Villes et campagnes en Syrie du nord : échanges et diffusion des produits d'après les témoignages archéologiques" in E. Aerts, J. Andreau et P. Orsted éd., *Proceedings Tenth International Economic History Congress*, Leuven (vol.14).

TATE (G.), 1989, "Les campagnes de la Syrie du Nord à l'époque protobyzantine" in *Hommes et richesses dans l'Empire byzantin (V<sup>e</sup>-VII<sup>e</sup> siècles)*, Paris.

TATE (G.), 1990, "Les relations économiques entre ville et campagne autour d'Antioche en Syrie du Nord (début du II<sup>e</sup> siècle-début du VII<sup>e</sup> siècle ap. J.C.)", in E.Aerts, J.Andreau et P. Orsted éd., *Proceedings Tenth International Economic Congress*, Leuven (vol. 14).

TATE (G.), 1992, *Les campagnes de la Syrie du Nord du II<sup>e</sup> au VII<sup>e</sup> siècles*, BAH 133, Beyrouth.

TCHALENKO (G.), 1953-1958, *Villages antiques de la Syrie du Nord*, Paris.